﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ٦٥ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ٦٦﴾ [طه: 65 - 66]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقالُ من نجوى الكلامِ الخفيِّ إلى ظاهر التَّحدّي الجليّ

لَمَّا ذكرتِ الآياتُ السَّابقة حديثَ السّحرة وما أكنّوه فيما بينهم، وأسرّوه في توصيف حال موسى ﷺ فيما ظنّوه، وهم يحثّ بعضهم بعضًا على رباطة الجأش، ووحدة الكلمة، وطلب الاستعلاء على موسى، ناسب أن يذكر السياق ما أعلنوه بعد ذلك في خطابِ موسى ﷺ، فقد بيّن في هذه الآية كيف التَفَتوا في خطابهم لموسى، مُتَحَدّينَ ما عنده من البيّنة، فقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾؛ ليبيّنوا تمكّنهم من المساواة بين الحالَيْن، باعتبار أنّهم همُ الغالبون في كلا الحالَيْن.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَعِصِيُّهُمۡ﴾: العَصا أصله واوي، وألقى الرجل عصاه، إذا اطمأن في مكانه، ويُقال: عصًا وعَصَوان، والجمع: العِصيّ، وعَصيَ بسيفه عَصَىً: أخذه أخذَ العصا فضرب به، وأعْصَى الكَرْمُ: أخرجَ عيدانَه، وفي الحديث: "لا ترفع عصاك عن أهلك"[1]، يُراد به الأدب، ويُقال لعظام الجناح: عِصيٌّ، وعصوتُ الجرحَ: داويتَه، وفاعله العاصي، والعصيان: خلاف الطاعة، واعْتَصَتِ النّواةُ: اشتدَّتْ[2].

2) ﴿يُخَيَّلُ﴾: (خيل) أصلٌ، والخَيال: أصله الصّورة المجرّدة كالصّورة المتصوّرة في المنام، وفي المرآة، وفي القلب بعيد غيبوبة

(1) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، برقم: (18) عن سيدنا أبي الدرداء ﷺ.
(2) ابن فارس، مجمل اللغة: (عصى)، والأصفهانيّ، المفردات: (عصا).

المرئيّ، ثمّ تستعمل في صورة كلّ أمر متصوَّر، وفي كلّ شخص دقيق يجري مجرى الخيال، والتّخييل: تصوير خيال الشّيء في النّفس، والتّخيّل: تصوّر ذلك، ويُقال خَيَّلَتِ السّماءُ: أبدت خيالًا للمطر[1]، والتّخيل: إبداء أمر لا حقيقة له، ومنه الخيال، وهو الطَّيف الطَّارق في النّوم، والمعنى في الآية: أنّ موسى رأى على غير الحقيقة صورة الحبال والعِصيّ كأنّها تسعى.

3) ﴿تَسۡعَىٰ﴾: جذر الكلمة هو (سعي)، وأَوْرد أهلُ اللّغةِ فيه ما هوَ بالواوِ؛ فالصَّوابُ أَن يُشارَ لَهُ بالحرفَيْن، فسَعَى: إذا مَشَى، زادَ الرَّاغبُ: بسُرْعَة[2]، وسعى يسعى سعيًا (عَدا)، وهوَ دونَ الشَّدِّ وفَوْق المَشْي، وقيلَ: السَّعْيُ: الجَرْيُ والاضْطِرابُ، وقيل: العمل والكسبُ، والمَسْعاةُ في الكَرَمِ والجود، والسِّعاية في أخذِ الصدقات، وسعاية العبد إذا كوتب في عتق رقبته، وساعى الرجل الأَمَةَ: فجَرَ بها، ولا تكون المساعاة إلَّا في الإماء خاصَّة[3]، والسَّعْيُ: المشي السّريع، وهو دون العَدْوِ، ويُستعمل للجدّ في الأمر، خيرًا كان أو شرًّا[4]، ومعنى السعي في الآية: المشي والاضطراب.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

السَّحَرَة تحدَّوا موسى لكسره أمام الملأ

تُبيِّن الآياتُ مبادرة السَّحرة حين حان وقت التّحدّي والمنازلة؛ فقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾، فقولهم هذا على سبيل التّخيير الذي يبدو فيه التّحدي والتّلويح بالقوة: يا موسى إما أن تلقي أنت عصاك قبلنا، وإمَّا أن تتركنا لنلقي حبالنا وعصيّنا قبلك، وقدَّموا موسى ﷺ على أنفسهم إظهارًا

(1) ابن فارس، المجمل في اللغة: (خيل)، والأصفهانيّ، المفردات: (خيل).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (سعي).
(3) ابن فارس، المجمل في اللغة: (سعي).
(4) الأصفهانيّ، المفردات: (سعي).

للثّقة بأمرهم[1]، إلا أنَّ موسى ﷺ تركَ فرصة البدء لهم، واستبقى لنفسه الجولة الأخيرة، وهذا ما كانوا يطلبونه كما يظهر من فحوى خطابهم، فامتثلوا أمره وألقوا ما معهم، فإذا حِبالُهم وعِصيُّهُم التي طرحوها، جعلت موسى ﷺ - لشدة اهتزازها واضطرابها - يُخيَّل إليه من شدة سحرهم أن هذه الحبال والعِصيَّ حيَّات تسعى على بطونها[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّة فصلِ الجملةِ عن السَّابقِ:

المبادرات نتاجُ المحاورات ومرتكز المشاورات

فُصِل قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾ عن الآية السابقة؛ لأنَّه استئناف بياني[3]، على نهجِ المحاورات فبينهما ما يسمّى في البلاغة شبه كمال الاتصال، فقد وقعت جوابًا عن سؤال يُفهم من الجملة الأولى، أي: قال السحرة لموسى ﷺ بعد أن وعدهم فرعون ما وعدهم: إما أن تلقي ما عندك أوَّلًا، وإمَّا أن نكون نحن الملقين لما عندنا[4]، فالآية السَّابقة هي قوله: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ٦٤﴾ [طه: 64] أثارت سؤالًا مؤدَّاه، ماذا فعلوا بعد أن أجمعوا كيدهم؟ فهذا التساؤل المقدّر تجيب عليه الآية التالية: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾، وهذا هو سرّ فصلها عن سابقتها.

نكتةُ التّعبير بصيغةِ الماضي:

طالبو الاستعلاءِ ينشطون في مبادرات الإلقاء

جاء التَّعبير بصيغة الفعل الماضي ﴿قَالُواْ﴾؛ لأنَّه الأصل في حكاية الحال الماضية، فهو لبناءِ حدثٍ ماضٍ على حدثٍ ماضٍ قبله، فجاء

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 123.

(2) طنطاوي، الوسيط: 9/ 124.

(3) الاستئناف البياني: هو الذي تنقطع عنده الصلة الإعرابية بين الجملة المستأنفة والجملة التي قبلها، وتبقى الصلة المعنوية بينهما، فتكون كلتا الجملتين مستقلّة بنفسها في الإعراب، أمَّا في المعنى فلا بدَّ بينهما من ارتباط يجعل الثانية بمنزلة جواب عن سؤال ناشئ من معنى الأُولى، يُنظر: عباس حسن، النحو الوافي: 4/ 390.

(4) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 9/ 56.

الفعل الماضي ﴿قَالُواْ﴾ بعد الفعل الماضي ﴿أَفْلَحَ﴾ [طه: 64]، و﴿ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ [طه: 64]؛ ليدلّ القولُ الذي كان منهم على إرادةِ الاستعلاء، وسبيله الذي سلكوه، وهو التَّحدّي المُتضمَّن في قولهم في طلب الإلقاء أوّلًا؛ إذ إنّ غايتهم من قولهم هو الاستعلاء على موسى، وما لديه منَ الحجّة.

نكتة إيثار الضّمير على الاسم الظَّاهر:

جمع السَّحرةَ الضَّميرُ اللفظيُّ كما جمعهم الإثم المعنويُّ

آثر النَّظم الإضمارَ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ﴾، دون الإتيانِ بالاسم الظَّاهر، فلم يقل: (قال السَّحرة)؛ لبيان صلته بما قبله، وأنَّ القائلين هم الذين أجمعوا أمرهم كيدًا ومكرًا، طلبًا للاستعلاءِ، على موسى عليه السلام، فبعد أن ذكر ﴿فَأَجْمِعُواْ﴾ [طه: 64] و﴿ٱئْتُواْ﴾ [طه: 64] ناسب ذلك قوله: ﴿قَالُواْ﴾ على النسق نفسه؛ لبيان استمرارهم هم أنفسهم على ما أضمرته نفوسهم من الباطل، وتحدّي الحقّ الذي جاء به موسى، وأنّ ذلك كلّه كان رأيًا جامعًا لهم، موحِّدًا إيَّاهم على رأي وكلمة وموقف، فقد جمعهم الضَّمير اللَّفظي، كما جمعهم المكر المعنويّ.

فائدةُ النِّداء بأداةِ البعيدِ:

تصويرُ أثرِ استعمالِ الألفاظِ في الإرهابِ النَّفسيِّ

أفاد النِّداءُ بأداة البعيد (يا) في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ تصويرَ مشهد التَّحدّي الصَّادر عن السَّحرة تجاه موسى عليه السلام، فهم ينادونه نداءَ البعيدِ لإلقاءِ الهيبةِ والخوفِ في نفسه، فإنَّ للنِّداءِ شأنًا في تحريكِ النُّفوسِ في مثل هذه المواقف، وهذا لونٌ من ألوانِ الإرهابِ النَّفسيِّ.

نوعُ ﴿إِمَّآ﴾ ودلالتها:

التَّخييرُ مسلكٌ أسلوبيٌّ اختزاليٌّ

﴿إِمَّآ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ للتّخيير؛ وأدخلَ ﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ﴾؛ لأنّها في موضع أمر بالاختيار، وهي في موضع نصب كقول القائل: اختر ذا أو ذا كأنّهم قالوا: اختر أن تُلقي، أو أن نلقي[1].

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 14/ 164.

المصدر المؤوّل بين الرَّفع والنَّصب:

الإلـقـاءُ عـنـوانُ الـلّـقـاء وبـابُ الارتقاء

استعمل النَّظم الكريم المصدر المؤوَّل في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾؛ لدلالةِ المصدر المؤوّل على الزّمن، وتدخل ﴿أَن﴾ على المضارع فتصرفه إلى الاستقبال غالبًا، و﴿أَن تُلۡقِيَ﴾ هنا في موضع نصب؛ أي: (إما أن تفعل الإلقاء)، ويحتمل أن تكون في موضع رفع؛ أي (إمَّا هو الإلقاء)[1]، والمعنى أنك تختار أحد الأمرين، وقدّر الزّمخشريّ الرّفع بتقدير: الأمر إلقاؤك أو إلقاؤنا، فجعله خبرًا لمبتدأ محذوف تقديره: (إلقاؤك أوَّل)، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾[2]، وللرَّفع قوَّةٌ لا تخفى في بيان الإلقاء.

دلالةُ مفردةِ الإلقاء الإشاريَّة:

تبييتُ الأعمالِ دليلُ الهيبةِ وأمارةُ الحيرة

دلَّ اختيارُ لفظِ الإلقاءِ في الآيةِ على أنَّ السَّحرةَ علموا أنّ آية موسى ﷺ في إلقاء العصا[3]، وهو ما يُشير إلى أنَّ السَّحرةَ استعدّوا لأمرٍ يتناسبُ مع معجزةِ موسى ﷺ، وهو ما يدلُّ على أنَّهم علموا أنَّ ما عنده يبعث على الهيبة والخوف، ويثير الحيرَةَ في النُّفوس، فإنَّ اجتماعَ أهلِ الصَّنعةِ على فردٍ يباريهم في صنعتهم على الملأ ممَّا يدعو إلى العُجْبِ المشوبِ بالخوف.

دلالةُ إضمار الفاعل:

التّـهـويـن من شـأن الخـصـومِ دليلُ الهموم

الفاعل في قوله: ﴿أَن تُلۡقِيَ﴾ مضمر تقديره: (أنت) دلّ عليه النّداء قبله: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾؛ فاقتضى السّياق إضمارَه إيجازًا، وهذا الإضمار يدلّ على التّهوين من شأن موسى، وهو ما ينسجم مع فحوى خطابهم لموسى ﷺ، ولا يخفى أنّ التهوين من شأن الخصم، عاملُ تقويةٍ للنَّفس المضطربة.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/ 438.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 353.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 353.

نكتة حذف المفعول:

تحديد وسيلة التَّحدّي كاشفٌ عن الاستعداد النَّفسي

في قوله تعالى: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾ تحديد لميدان المنافسة عندهم، وهو إلقاء العصا، فهم بهذا السّبق في تخيير موسى ﷺ حدّدوا ما يضمن لهم التّفوّق؛ إذ كان لديهم سابق توقع بأنّ موسى سيُلقي عصاه، وأنّ قدرته الفائقة التي علموا بخبرها قد تتجاوز إلقاء العصا إلى قدرة فائقة أخرى، فلا تكون مُقتصرة على إلقاء العصا فحسب؛ لأنّ لموسى ﷺ آياتٍ أخرى منها قوله تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ١٠٨﴾ [الأعراف: 108]، ونجد هُنا أنّ في الآية حذفًا للمفعول وهو (العصا)، فلم يُصرّحوا بها؛ بل اكتَفوا بفعل الإلقاء، إذ يبدو أن ذلك هو حدود علمهم وقدرتهم في السّحر وهو الإلقاء للعِصيِّ والحبال، وأن هذا أبرع ما يملكون ويعرفون من السّحر، أو أنَّهم اتَّفقوا على عنوان التَّحدّي؛ فلمَّا بدؤوا ذكروا ما اتُّفق عليه.

نكتة تكرار لفظ ﴿إِمَّآ﴾ والعطف بينها:

التّكرار لغرض الاختيار مع بقاء ظاهر التّخيير

كرِّرتِ الآيةُ ذكر ﴿إِمَّآ﴾، وهذا من قبيل التّكرار التّوكيديّ، يراد به إثارة توقّع المتلقي، وتأكيد المعاني، وترسيخها في الذّهن، فتكون فائدة تكرار (إمَّا) توكيدَ التّخيير، وبيانَ رغبتهم في أن يُلقوا هم أوّلًا، ولكنّهم خيّروه ليُثبتوا الحجّة عليه، بأن يختار إلقاءهم أوّلًا، لما عندهم من الحبال والعصيّ.

وأفاد عَطْفُ جملة ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ﴾ على جملة: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾ هُنا التّسويةَ والتّخييرَ بين الجملتين.

دلالةُ ذكرِ فعل الكينونةِ:

الإشـــارةُ إلى الرَّغبةِ في أوليَّة الإلقاء

اختلف التَّعبير بين جملة ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾ وجملة: ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾؛ فأضافوا فعل الكينونة؛ للدّلالةِ على إشارتِهم لموسى ﷺ بأنَّهم يرغبون في الإلقاء، فإنَّ ذكر فعل الكينونة دون المماثلة في نظم الجملتين بحيث يُقال: (وإمَّا أن نلقي) كافٍ في بيانِ تلك الإشارة، وأنَّه يريدون كينونة الإلقاء السَّابقة لهم.

نكتةُ اختيارِ لفظِ ﴿أَوَّلَ﴾ وفائدته:

الأوليّة سابقةٌ في التّأثير حاضرةٌ في الجماهير

تضمَّن ذكر الأوليَّة في قوله تعالى: ﴿أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ الإشارةَ إلى طلبِ الاستعجال، والسّرعة في التّنفيذ؛ فكأنّهم قالوا: إمَّا أن تلقي وإلا سبقناك في إلقاء ما لدينا، وهم إنَّما طلبوا الأوليَّة في الإلقاء باعتبارِ اكتسابِ قوَّة التَّأثير، فإنَّ للأوليَّة تأثيرًا في الأعين الباصرة، فكيف إذا كان سحرًا عظيمًا؟!

كما أفاد استعمالُ اللفظ: ﴿أَوَّلَ﴾ ضرورةَ أن يأتي بعدها ثانيًا؛ ليكتمل التّحدّي، ويضمن السّحرة إلقاء موسى بعدهم، وذلك ثقة بقدراتهم الغالبة لكل ساحر دونهم، فقد حتّموا على موسى بقولهم: ﴿أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ قبول التّحدّي ودخول المنازلة، وأن يكون مُلقيًا بعد إلقائهم.

دلالة استعمال ﴿مَنْ﴾ الموصولة:

إظهارُ الوحدةِ غرضٌ في إضعافِ الخصم

أفاد الاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ تعظيمَ أنفسهم، لما يجدونه فيها من القدرة على التّفوّق بسحرهم على ما جاء به موسى، و(مَنْ) تقع على المفرد والمثنى والجمع والمذكّر والمؤنّث؛ كأنّهم اعتبروا أنفسهم كالفريق الواحد في إلقائهم أمام موسى عليه السلام، فأفاد استعمالها تقوية الإلقاء، واعتبار موسى عليه السلام الطرف الثّاني في الإلقاء والتّحدّي.

بلاغةُ الاختزال:

ما من عبارةٍ قرآنيَّة إلا وهي قابلةٌ للشَّرح الطَّويل

في الآية الكريمة إيجازٌ بديعٌ لو شرح لكان هذا بيانه: (فجاؤوا مصطَفّين إلى مكان الموعد، وبيَد كلّ واحد منهم عصًا وحَبْلٌ، وجاء موسى وأخوه ومعه عصاه، فوقفوا وقالوا: يا موسى إمَّا أن تلقي أولًا ثم نلقي بعدك وإمَّا أن نكون أوّل من ألقى)، وهذا الإيجاز يوحي بالعبارات القليلة إلى المعنى الكُلّيّ لأحداث القصّة الَّتي يفهمها كلُّ واحدٍ.

بلاغة المقابلة المعنوية:

المراوغةُ مسلكُ السَّحرةِ وطريق الفجرة

أفادت المقابلة في قوله تعالى: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾ معنى المراوغة التي سلكها السّحرة في قولهم؛ الذي أرادوا به البدء أوّلًا بإلقاء ما لديهم، "وتحسُنُ المقابَلةُ في الآيةِ من حيث المعنى، وإن كان من حيث التّركيبُ اللّفظيُّ لم تَحصُل المقابلة؛ لأنَّا قدّرنا: إلقاؤكَ أوَّلُ، ومُقابَلُهُ كونهم يكونون أوّل من يلقي، لكنه يَلْزمُ من ذلك أن يكون إلقاؤهم الأَوَّلَ، فهي مقابَلةٌ معنويةٌ"[1].

فنُّ التّورية في الخطابِ:

المستعلي مبتعدٌ عن إبداءِ رغبته متوارٍ عن إظهارِ مقصده

في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾ فنُّ التّورية وهو مُنتزَعٌ من التّقديم والتّأخيرِ، حيث خيَّر السَّحرةُ موسى عليه السلام بين أمرين، أن يُلقي هو أولًا، أو أن يكونوا هم المُلْقين، فلمَّا بدؤوا بذكر موسى عليه السلام كان هذا من ذكر المعنى القريب، ولمَّا ثنَّوا بذكرِ أنفسِهم كان هذا من قريبِ المعنى البعيد، فهم ورَّوا بالابتداءِ بذكر القريبِ، وهم يريدون البعيد، وكان لهم ما أرادوا.

بلاغةُ التَّخييرِ في الخطاب:

التَّخييرُ إبداءٌ للسَّببِ وارتقاءٌ في الشَّغب

ذكر النَّظم الكريم تخييرهم إياه بقوله: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾؛ للإشارة على ثِقتهم بأنفسهم، واعتدادهم بسحرهم، لاعتقادهم بأنَّ ذلك أفاد إرهابًا له، بقدرتهم وحتميّة نصرهم، وإظهارًا لعدم المبالاة به، وما قيل من أن علّة التّخيير مراعاة الأدب معه[2]، فلا وجه له البتّة؛ بل إنّ مقامهم بحضرة مَلِكهم الذي يدّعي الألوهية والرّبوبية فيهم - وما طلبوه منه، وما وعدهم إياه - كل ذلك يقتضي أن يحتقروا خصمه، لا أن يتأدبوا معه[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 353 - 354.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 74.
(3) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 9/ 56.

بلاغة فنّ الاحتباك:

توجيه الأنظارِ إلى من سيحقّق الانتصار

جاء في قوله تعالى: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾ فنُّ الاحتباكِ، وتقديره: (إمَّا أن تُلقي، فنرى ما تأتي به من الخوارق، فنُلقي بعدك، وإمَّا أن نكون أوّل من ألقى، فتُلقي بعدنا)، وفائدة فن الاحتباك الإيجاز؛ وتوجيه النّظر إلى مَنْ سيلقي أوّلًا دون النّظر إلى مَن سيلقي ثانيًا، لقناعتهم بأنّ أوّل من ألقى سيكون له أثر أعظم في قناعةِ النَّاس.

فنُّ رد العجز على الصّدر:

حصر ميدان التّحدّي بالإلقاء

ورد لفظُ الإلقاءِ في قوله تعالى: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾، وهو من قبيل ردّ العجز على الصّدر[1]، وفائدته هنا أنّ السّحرة حصروا الميدان الوحيد بالإلقاء للعصيّ والحبال، الذي لهم فيه ثقة بأنفسهم بالغلبة على ما سيأتي من إلقاء موسى، فهم سيُلقون العصيّ والحبال، وهو سيلقي عصًا واحدةً، وضمنوا ذلك بتكرار لفظة الإلقاء، مع عدم الخروج إلى حالات أخرى من التّحدّي، خشية أن يخرج موسى إلى مستويات أخرى من التّحدّي.

فائدةُ استعمالِ حرفِ الإضرابِ:

الإعراضُ عن أوّليّة الإلقاء دليلُ قوّةِ الارتقاءِ

آثر النَّظم الكريم استعمال حرف ﴿بَلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ أَلۡقُواْۖ﴾ دون أن يقول: (قال ألقوا)، وهو إضرابٌ عمَّا قَبْلَه، وإثباتٌ لِما بعدَه، وهو هنا للعدول؛ لأنّ ما سبقه كلام مُثْبَتٌ، عُدِلَ عنه إلى شيءٍ آخَرَ، والإضراب هو الإعراض عن الشيء بعد الإقبال عليه، أو اختيار أحد أمرين، وهذا ما أفادته العبارة القرآنيّة، فبعد أن خيّر السّحرة موسى بقولهم: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾ جاء اختيار موسى ﷺ بقوله: ﴿بَلۡ أَلۡقُواْۖ﴾، فأعرض عن أن يكون هو أوّل الملقين، واختار أنْ يكونوا هم كذلك، لرغبتهم فيه.

(1) وهو أسلوب بديعيّ مفاده أنْ يكون أحَدُ اللّفْظَيْنِ المكرَّرَين أو المتجانسين في أوّل الفقَرَة، والآخر في آخِرِها.

غرضُ الأمرِ ﴿أَلْقُواْ﴾:

الأمـرُ المُكْتَنِهُ بالتَّحدّي أدعى في إرغامِ المفتري

خرج الأمر في قوله تعالى: ﴿بَلْ أَلْقُواْ﴾ إلى معنى التّحدّي؛ لأنّ سياقَ الآية ككلٍّ هو سياق تحدٍّ ومواجهةٍ بين الحقِّ والباطل، فمهما بلغ الباطل من القوّة، فلا بدّ أن ينتصرَ الحقّ، ومهما بلغت قوة السّحرة في التّخييل وسِحْرِ أَعْيُنِ النَّاس؛ فإن فِعْلَ الله في جعل العصا حَيَّةً تسعى وهي تلقف ما يأفِكون هو الأعظم.

بلاغةُ الفاءِ الفصيحة:

بمجرَّدِ إلقاءِ السَّحرةِ خُيِّل للناظرين الوهمُ

أفادت الفاء عطف جملة: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾؛ على جملةٍ محذوفةٍ دَلَّ عليها السّياقُ، والتّقدير: (فَأَلْقَوْا فإذا حِبالُهُم)، وهذه الفاء هي الفصيحة؛ لأنَّها أفصحت عن المحذوف المقدَّر، فأفاد العطف بالفاء هنا أنّ تلك الحبال والعصيّ خُيّل للنَّاظرين حال إلقائها أنّها تسعى مثل الأفاعي، فتكشف عن سرعة ظهور السّحر وقوّة تأثيره في التّخييل.

نوعُ (إذا) ودلالتها:

عظيمُ السِّحرِ يجعلُ الثَّابت مفاجئًا

(إذا) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾؛ للمفاجأة، وهي تختصّ بالجمل الاسميّة، والاسم بعدها مرفوع على الابتداء، فتقدير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾؛ تفاجأ موسى وقت تخييل سعي حبالهم وعصيهم، وهذا تمثيل، والمعنى: (على مفاجأتِه حبالُهُم وعصيُّهُم مُخيّلة إليه السّعي)[1]، "والمفاجأة المستفادة من (إذا) دلّت على أنّهم أعدّوها للإلقاء، وكانوا يخشون أن يمرّ زمان تزول به خاصّيَّاتها فلذلك أسرعوا بإلقائها"[2].

الصِّناعةُ الخفيَّةُ عملٌ سابقٌ للسحرة ومسلكٌ خفيٌّ للمهرة

نكتةُ إضافة الحبال والعصيّ إلى السّحرة:

أُضيفت الحبالُ والعِصيُّ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 74.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 258.

للسّحرة؛ ليدلّ على أنّ هذه الحبال والعِصيَّ فيها عملٌ مسبَّق وصناعة خفيّة، ودلّ على ذلك التّصريح في الآية بصناعتهم وما وضعوه في هذه العصيّ والحبال، قال تعالى: ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾، وهذا على خلاف عصا موسى التي لم تُذكر في السّياق، فقال تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾، فمهما كان الذي في يمينه فإنّ آية الله ظاهرة لا مَحالة.

ويمكن أن يُستفاد معنى آخر من إضافةِ الحبال والعصيّ إلى السّحرة، هو بيان اختصاصهم بتلك الأفعال السّحريّة التي لا تكون إلا بأفعالهم، ولو كانت تلك الحبال والعصيّ بيد آخرين لما امتلكت تلك الصِّفات التّخييليّة في الحركة والسّعي.

نكتة بناء فعل ﴿يُخَيَّلُ﴾ للمفعولِ:

تقليل شأن السِّحر وتهميش قوّة السّحرة

بناء الفعل ﴿يُخَيَّلُ﴾ لما لم يُسمّ فاعله لنكتة أنّ ثمّة فاعلًا خفيًّا من شياطين الجنّ وراء أفعال السّحرة، على خلاف أفعال الرّسول، أو أفعال الله تعالى في إظهار المعجزات، فالبناء لما لم يُسمّ فاعله ﴿يُخَيَّلُ﴾ أفاد تقليلَ شأن ما تفعله السّحرة مُستعينة بتلك القوى الخفية، التي سوف تتهاوى أمام عظيم ما جاء به الرّسول من المعجزات.

توجيه القراءات القرآنية:

أَوْهَمتِ العِصيُّ والحبالُ من حركتها واهتزازها أنها تسعى

قرأ الجمهور ﴿يُخَيَّلُ﴾ بتحتيّة في أول الفعل على أن نائب فاعله المصدر من قوله: ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾، والمَعْنى يُخيَّل إِلَيْه سعيُها، ويجوز أَن تردّه على السّحر، وقَرَأَ ابْن ذكوان ورَوْح ﴿تُخَيَّلُ﴾ بفوقية في أوّله على أنّ الفعل رافع لضمير ﴿حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾[1]. ردّه على الحبال والعصيّ؛ أي هي تُخَيَّل إليه[2]، و﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾: بدل من الضّمير

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 321.
(2) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 457.

المستتر بدل اشتمال[1]. فمن قرأ بالتاء ردَّه على الحِبال والعصيِّ؛ لأنّها جمع، وجمع كلّ ما لا يعقل بالتأنيث، ومن قرأ بالياء ردَّه على السِّحر.

نوعُ ﴿مِن﴾ ومعناها:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن سِحْرِهِمْ﴾ للسببيّة كما في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ﴾ [نوح: 25][2]؛ أي يخيّل إليه سعي الحبال والعصيّ لسبب ما فعله السّحرة فيها.

دلالة ورود الجملة ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ بدل اشتمال:

أقصى ما صنعه السّحرة هو تخييل اهتزاز الحبال والعصيّ

قوله تعالى: ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ بدل اشتمال لضمير الحبال والعصيّ المُستَكِنِّ في فعل ﴿يُخَيَّلُ﴾؛ إذ إنّ السّحرة ألقَوها في وقت واحدٍ؛ وأنّ أقصى ما فعلوه وصنعوه من السّحر، تلك الحركات التي تحدث في الحبال والعصيّ، ثُمّ إنّ كثرتها في ساحة الإلقاء تشوّش على النّاظرين نظرهم، فتبدو وكأنّ السّاحة تتموّج وتسعى لكثرة حركاتها.

توجيه المتشابه اللّفظي:

الأوّليّة في الإلقاء وإسراع السّحرة في المُنازلة

تقدمت هذه القصة ومعانيها في سورة الأعراف: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف: 115 - 116] مع اختلاف أن الأوّليّة في سورة طه مصرّح بها: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾؛ فكانت صريحة في أن التّخيير يتسلّط على الأولية في الإلقاء، وأنّه صرّح في سورة طه بأنّ السّحر الذي ألقوْهُ كان بتخييل أنّ حبالَهم وعصيَّهم ثعابينُ تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾، فلمَّا اختاروا الأوّليّة في سورة طه أوغل في إظهار عظيم سحرهم وبيّن أدهش شيءٍ فيه؛ وهو أنّ الحبال والعصيّ تحرّكت مثل الحيَّات في تخييل عجيب وسحر للأعين، أمَّا

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 74.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 258.

في سورة الأعراف فلم يُظهر طَلَبَ الأوّليّة، ولذلك فإنّه لم يُبرز دقائقَ سحرهم، بل اكتفى بقوله: ﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦﴾ [الأعراف: 116].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإلقاء والرَّمي:

الرّمي بتحديد هدف والإلقاء طرح الشّيء في المحلّ

(لقي) اللَّام والقاف والحرف المعتل أصول ثلاثة: أحدها يدلّ على عوج، والآخر على توافي شيئين، والآخر على طرح شيءٍ، فألقيته: نبذته إلقاءً، والشَّيء الطَّريح لقيٌ[1]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥﴾ [المزمل: 5]، فإشارة إلى ما حُمِّلَ من النّبوّة والوحي، وقوله: ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾، فإنّما قال: ﴿فَأُلۡقِيَ﴾ تنبيهًا على أنَّه دهمهم وجعلهم في حكم غير المختارين، أمَّا الرّمي؛ رماه عن القوس بالمِرْماة رَميةً صائبةً، وهو جيد الرّمي والرّماية، وهو من رُماةِ الحَدَقِ، وهو رجل رَمَّاءٌ[2]، فيكون في الرّمي تحديد هدف بغية إصابته، على خلاف الإلقاء الذي يكون للتّعبير عن طرح الشّيء في المكان، والإلقاء للشّيء يكون قريبًا، والرّمي يكون بعيدًا، والرّمي يقتضي القوّة، والإلقاء لا يقتضي ذلك.

العصا والمنسأة:

المِنْسَأَة العصا العظيمة والعصا أعمُّ من ذلك

(العَصا) مُؤَنَّثَةٌ يُقالُ: عَصا والجَمعُ (عِصيٌّ) بِكَسْرِ العَيْنِ وضَمِّها[3]، والمِنْسَأة: العصا العظيمة التي تكون مع الراعي، وإنّما سمّي بها (لأنّ الدَّابة تُنسأ بها)؛ أي تُزجر بها، ومنسأته؛ العصا بلسان الحبشة[4]، فالمنسأة هي العصا العظيمة، فلم يُذكر هنا أنّ عصا موسى كانت عظيمة، كي لا يُنسب ما حدث إلى عَظَمَة عصا موسى، فمهما كان الذي في يمين موسى من شيء؛ فإنّه سيتحوّل إلى تلك الحيّة العظيمة التي سوف تتلقّف كل ما صنعوا.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: 16/ 258 - 259.
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: 1/ 388.
(3) الرّازي، مختار الصّحاح، ص: 211.
(4) أبو البقاء، الكُلّيّات، ص: 880.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والثلاثون،
سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والثلاثون، سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 32 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-74-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 32 : المجلد الثاني والثلاثون، سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-74-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4565158 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»